



الفردوس نزلاً \* خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ﴿١٠٩﴾ أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الذين، عقائده، وأعماله، أصوله، وفروعه الظاهرة والباطنة، فهؤلاء - على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح، لهم جنات الفردوس.

يحتمل أن المراد بجنات الفردوس، أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأن هذا الثواب لمن كتمل الإيمان والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقربون.

ويحتمل أن يراد بها، جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب، جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين والأبرار، والمقتصدین، كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، ولأن الفردوس يطلق على البستان، المحتوي على الكرم، أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة، فجنة الفردوس نُزِّل، وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي: ضيافة أجل وأكبر، وأعظم من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم، للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهي الأنفس، وتلد الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المفردة المشجية، والمأكَل اللذيذة، والشارب الشبيهة، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأمهات السارحة، والناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله وأجله، التمتع بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم، فله تلك الضيافة، ما أجلها وأجلها وأدومها وأكملها!!، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تحظر

وتخذوا آياتي ورسلي هزواً ﴿١١٠﴾ أي: قل يا محمد، للناس - على وجه التحذير والإنذار - هل أخبركم بأخسر الناس أعمالاً على الإطلاق؟ ﴿الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا﴾ أي: بطل واضمحل كل ما عملوه من عمل، يحسبون أنهم محسنون في صنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة، وأنها محادة لله ورسوله ومعاداة!! فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم، ف ﴿خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة﴾ ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه﴾ أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانة، الدالة على وجوب الإيمان به وبملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر.

﴿فحبطت﴾ بسبب ذلك ﴿أعمالهم﴾ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴿لأن الوزن فائدته، مقابلة الحسنات بالسينات، والنظر في الراجح منها المرجوح، وهؤلاء لا حسنة لهم لعدم شرطها، وهو الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ لكن تعد أعمالهم وتحصى، ويقررون بها، ويحزون بها على رؤوس الأشهاد، ثم يعذبون عليها، ولهذا قال: ﴿ذلك جزاؤهم﴾ أي: حبطت أعمالهم، وأنه لا يقيم لهم يوم القيامة، ﴿وزناً﴾ لحقارتهم وخستهم، بكفرهم بآيات الله، واتخاذهم آياته ورسله، هزواً يستهزئون بها، ويستخرون<sup>(١)</sup> منها، مع أن الواجب في آيات الله ورسله، الإيمان التام بها، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية، فانعكس أمرهم، وتمسوا، وانكسوا في العذاب. ولما بين مال الكافرين وأعمالهم، بين أعمال المؤمنين ومآلهم فقال:

﴿١٠٧- ١٠٨﴾ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات

على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علماً حقيقياً يصل إلى قلوبهم، لطارت إليهما قلوبهم بالاشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليهما زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتاً تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفذت<sup>(٢)</sup>، فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقوله: ﴿خالدين فيها﴾ هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع ﴿لا يبغون عنها حولا﴾ أي: تحولا ولا انتقالاً، لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم، ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيماً فوق ما هم فيه.

﴿١٠٩﴾ ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾ أي: قل لهم مخبراً عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: ﴿لو كان البحر﴾ أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿مداداً

(٢) كذا في أ، وفي ب: وهت.

(١) في النسخين: ويستخرون.

ومعرفته، والسبب الموصل إليه . وذلك أن الله تعالى اجتبى واصطفى زكريا عليه السلام لرسالته، وخصه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلى ربه، وعلمهم ما علمه الله، ونصح لهم في حياته وبعد مماته، كماخوانه من المرسلين ومن اتبعهم، فلما رأى من نفسه الضعف، وخاف أن يموت، ولم يكن أحد ينوب منابه في دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم، شكوا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداء خفياً، ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصاً، فقال:

﴿رب إني وهن العظم مني﴾ أي: وهي وضعف، وإذا ضعف العظم، الذي هو عماد البدن، ضعف غيره، واشتعل الرأس شيباً﴾ لأن الشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت ورائده ونذيره، فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله، لأنه يدل على الشُّبْرِي من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته.

﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي: لم تكن يا رب تردني خائباً ولا محروماً من الإجابة، بل لم تنزل بي حفيماً ولدعائي مجيباً، ولم تنزل الطافك تنوياً علي، وإحسانك واصلماً إلي، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقاً، أن يتم إحسانه لاحقاً.

﴿وإني خفت الموالي من ورائي﴾ أي: إني خفت من يتولى علي بني إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك، وظاهر هذا، أنه لم يرق فيهم أحداً فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه، وأن طلبه للولد، ليس بطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولداً، يقوم بالدين

﴿قل﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ أي: لست بآله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله، و ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ عبد من عبيد ربي، ﴿يوحى إلي أنما الهكـم إله واحد﴾ أي: فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحى الله إلي، الذي أجله الإخبار لكم: أنما الهكـم إله واحد، أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه. ولهذا قال:

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً﴾ وهو الموافق لشرع الله، من واجب ومستحب، ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي: لا يراني بعمله، بل يعمل خالصاً لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وأخره، وقد فاته القرب من مولاه وتبيل رضاه.

آخر تفسير سورة الكهف، والله الحمد

### تفسير سورة مريم وهي مدنية

﴿١ - ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم كهيعص﴾ ذكر رحمة ربك عبده زكريا \* إذ نادى ربه نداء خفياً \* قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً \* وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً \* يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً \* أي: هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا \* سنقصه عليك، ونفصله تفصيلاً يعرف به حالة نبيه زكريا، وأثاره الصالحة، ومناقبه الجميلة، فإن في قصصها عبرة للمعتبرين، وأسوة للمقتدين، ولأن في تفصيل رحمة أوليائه، وبأي سبب حصلت لهم، مما يدعو إلى محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره



لكلمات ربي﴾ أي: وأشجار الدنيا من أولها إلى آخرها، من أشجار البلدان والبراري، والبحار أقالام، ﴿لنفد البحر﴾ وتكسرت الأقالام ﴿قبل أن تنفذ كلمات ربي﴾ وهذا شيء عظيم، لا يحيط به أحد.

وفي الآية الأخرى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقالام والبحر يمدد من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾. وهذا من باب تقرير المعنى إلى الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات منقضية منتهية، وأما كلام الله فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهى، فإني سعة وعظمة تصورها القلوب فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى، كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظم، أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى.

﴿١١﴾ ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما الهكـم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي:



وهذا أبلغ ما يكون من العفة، والبعد عن الشر وأسبابه. وهذه العفة - خصوصاً مع اجتماع الدواعي، وعدم المنع - من أفضل الأعمال.

ولذلك أثنى الله عليها فقال: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وآية للعالمين ﴿فأعاضها الله بعفتها، ولدأ من آيات الله، ورسولاً من رسله، فلما رأى جبريل منها الروح والخيفة، قال: إنما أنا رسول ربك﴾ أي: إنما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك ﴿لأهب لك غلاماً زكياً﴾ وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه، فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة، واتصافه بالخصال الحميدة، فتعجبت من وجود الولد من غير أب، فقالت: ﴿أني يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً﴾ والولد لا يوجد إلا بذلك!! ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس﴾ تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعمل أن الأسباب جميعها، لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله، فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية، لثلا يقفوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها ﴿ورحمة منا﴾ أي: ولنجعله رحمة منا به، وبوالدته، وبالناس.

أما رحمة الله به، فلما خصه الله بوحيه ومنَّ عليه بما منَّ به على أولي العزم، وأما رحمة بوالدته، فلما حصل لها من الفخر، والثناء الحسن، والمنافع العظيمة. وأما رحمة بالناس، فإن أكبر نعمه عليهم، أن بعث فيهم رسولاً، يتلو عليهم آياته، ويزكهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيؤمنون به، ويطيعونه، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة، ﴿وكان﴾ أي: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة ﴿أمراً مقضياً﴾ قضاء سابقاً، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفع جبريل عليه السلام في جيها.

انتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدريجاً من الأدنى إلى الأعلى فقال: ﴿واذكر في الكتاب الكريم مريم﴾ عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعها الكامل، أي: واذكر في الكتاب مريم، في حالها الحسنة، حين ﴿انتبذت﴾ أي: تباعدت عن أهلها مكاناً شريعياً﴾ أي: مما يلي الشرق عنهم، ﴿فالتحذت من دونهم حجاباً﴾ أي: سترأ ومانعاً، وهذا التباعد منها، واتخاذ الحجاب، لتعتزل، وتفرد بعبادة ربه، وتقتل له في حالة الإخلاص والتخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثال منها مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين \* يا مريم اقتني لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ وقوله: ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ وهو: جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي: كاملاً من الرجال، في صورة جميلة، وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص، لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه، فلما رآته في هذه الحال، وهي معتزلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلها، خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء، وطمع فيها، فاعتصمت بربها، واستعاذت منه فقالت له: ﴿إني أعوذ بالرحمن منك﴾ أي: ألتجىء به واعتصم برحمته، أن تتلني بسوء، ﴿إن كنت تقياً﴾ أي: إن كنت تخاف الله، وتعمل بتقواه، فترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تحويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها،



لم يكن عاقاً، ولا مسيئاً إلى أبويه، بل كان محسناً إليهما بالقول والفعل.

﴿ولم يكن جباراً عصبياً﴾ أي: لم يكن متجبراً متكبراً عن عبادة الله، ولا مترفعاً على عباد الله، ولا على والديه، بل كان متواضعاً، متذللاً، مطيعاً، أواباً لله على الدوام، فجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه، ولهذا حصلت له السلامة من الله، في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها، فلهاذا قال: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشر، والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال، ومن أهل دار السلام، فصولات الله وسلامه عليه وعلى والده وعلى سائر المرسلين، وجعلنا الله من أتباعهم، إنه جواد كريم.

﴿١٦ - ٢١﴾ واذكر في الكتاب

مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شريعياً \* فالتحذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً \* قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً \* قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً \* قالت أني يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً \* قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً \* لما ذكر قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة،

تقول: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك وقالوا: ﴿كيف تكلم من كان في المهدي صبياً﴾ لأن ذلك لم تجر به عادة، ولا حصل من أحد في ذلك السن، فحينئذ قال عيسى عليه السلام، وهو في المهدي صبي: ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ فخطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهاً، أو ابناً للاله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله ﴿إني عبد الله﴾ ومدعون موافقته.

﴿أتاني الكتاب﴾ أي: قضى أن يؤتيني الكتب ﴿وجعلني نبياً﴾ فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه، ثم ذكر تكميله لغيره فقال: ﴿وجعلني مباركا أينما كنت﴾ أي: في أي: مكان، وأي: زمان، فالبركة جعلها الله في من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالس، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مصاحبه.

﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ أي: أوصاني بالقيام بحقوقه، التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عبادته، التي أجلها الزكاة، مدة حياتي، أي: فأنا ممثّل لوصية ربي، عامل عليها، منفذ لها، ووصاني أيضاً، أن أبر والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها.

﴿ولم يجعلني جباراً﴾ أي: متكبّراً على الله، مترفعاً على عباده ﴿مشقياً﴾ في دنياي أو أخراي، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعاً له خاضعاً خاشعاً متذلاً، متواضعاً لعباد الله، سعيداً في الدنيا والآخرة، وأنا ومن اتبعني، فلما تم له الكمال، وبِحامد الخصال قال: ﴿والسلام على يوم

الناس لا يصدّقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرئتها بكلام عيسى في المهدي، أعظم شاهد على براءتها، فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج، ودعواها أنه من غير أحد، من أكبر دعاوى، التي لو أقيم عدة من الشهود، لم تصدق بذلك، فجعلت بينه هذا الحارق للعادة، أمراً من جنسه، وهو كلام عيسى في حال صغره جداً، ولهذا قال تعالى:

﴿٢٧- ٢٣﴾ ﴿فأنت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرئياً﴾ يا أخت هارون ما كان أبوك امراً سوء وما كانت أمك بغياً \* فأشارت إليه قالوا كيف تكلم من كان في المهدي صبياً \* قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً \* وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً \* وبراً بالذي لم يجعلني جباراً مشقياً \* والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾ أي:

فلما تعلقت مريم من نفاسها، أتت بعيسى قومها تحمله، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأنت غير مبالية ولا مكترثة، فقالوا: ﴿لقد جئت شيئاً فرئياً﴾ أي: عظيماً وخميماً، وأرادوا بذلك البغاء<sup>(١)</sup>، حاشاها من ذلك، ﴿يا أخت هارون﴾ الظاهر، أنه أخ لها حقيقي، فنسبها إليه، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قروراً كثيرة، ﴿ما كان أبوك امراً سوء وما كانت أمك بغياً﴾ أي: لم يكن أبوك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصاً هذا الشر، الذي يشيرون

إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وأتيت بما لم يأتيا به؟، وذلك أن الذرية - في الغالب - بعضها من بعض، في الإصلاح وضده، فتعجبوا - بحسب ما قام بقلوبهم - كيف وقع منها، فأشارت لهم إليه، أي: كلموه، وإنما أشارت لذلك، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها، أن

﴿٢٢- ٢٦﴾ ﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً \* فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً \* فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً \* وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً \* فكلي واشربي وقري عينا فإما تریين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ أي: لما حملت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس ﴿مكاناً قصياً﴾ فلما قرب ولادها، ألقاها المخاض إلى جذع نخلة، فلما ألقاها رجوع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من حالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمنّت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسياً منسياً فلا تذكر، وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمانة خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل، فحينئذ سكن الملك روعها وثبت جأشها ونادها من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تجزعي ولا تهمني، ف﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ أي: نهراً تشربين منه، ﴿وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾ أي: طرياً لذيداً نافعاً ﴿فكلي﴾ من التمر، ﴿واشربي﴾ من النهر ﴿وقري عينا﴾ بعيسى، فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكّل والمشرب والهنّي.

وأما من جهة قالة الناس، فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر، أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ أي: سكوتاً ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ أي: لا تخاطبهم بكلام تستريحي من قولهم وكلامهم. وكان معروفاً عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنما لم تؤمر بخطابهم في نفي ذلك عن نفسها لأن

(١) كذا في ب، وفي أ: البغي، وما في ب يبدو أنه معدّل من البغي فصار (البغاء) هو الأقرب المتوافق مع القصة.

وأقوالهم، ويقولون: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ ففي القيامة، يستيقنون حقيقة ما هم عليه.

﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾ وليس لهم عذر في هذا الضلال، لأنهم بين معاند ضال على بصيرة، عارف بالحق صادف عنه، وبين ضال عن طريق الحق، متمكن من معرفة الحق والصواب، ولكنه راض بضالته وما هو عليه من سوء أعماله، غير ساع في معرفة الحق من الباطل، وتأمل كيف قال: ﴿فويل للذين كفروا﴾ بعد قوله ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ ولم يقل ﴿فويل لهم﴾ ليعود الضمير إلى الأحزاب، لأن من الأحزاب المختلفين، طائفة أصابت الصواب، ووافقت الحق، فقالت في عيسى: ﴿إنه عبد الله ورسوله﴾ فأمنوا به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون، غير داخلين في هذا الوعيد، فلهذا خص الله بالوعيد الكافرين.

﴿٣٩ - ٤٠﴾ ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإنا بارجعون﴾ الإنذار هو: الإعلام بالخوف على وجه التهيب، والإخبار بصفاته، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد، يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، ويتبع عن أعمالهم، فمن آمن بالله، واتبع رسله، سعد سعادة لا يشقى بعدها، ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شقياً لا سعادة<sup>(١)</sup> بعدها، وخسر نفسه وأهله، فحينئذ يتحسر، ويندم ندامة تنقطع منها القلوب، وتنصدع منها الأئدة، وأي: حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته، واستحقاق سطحه والنار، على وجه لا يتمكن من الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟! فهذا قدامهم، والحال أنهم في الدنيا في

ربي وربكم﴾ الذي خلقنا، وصورنا، ونفذ فينا تدبيره، وصرفنا تقديره.

﴿فاعبدوه﴾ أي: أخلصوا له العبادة، واجتهدوا في الإنابة، وفي هذا الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والاستدلال بالأول على الثاني، ولهذا قال: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي: طريق معتدل، موصل إلى الله، لكونه طريق الرسل وأتباعهم، وما عدا هذا، فإنه من طرق الغي والضلال.

﴿٣٧ - ٣٨﴾ ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾ لما بين تعالي حال عيسى ابن مريم الذي لا يشك فيها ولا يمتري، أخبر أن الأحزاب، أي: فرق الضلال، من اليهود والنصارى وغيرهم، على اختلاف طبقاتهم اختلفوا في عيسى عليه السلام، فمن غال فيه وجاف، فممنهم من قال: إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة ومنهم من لم يجعله رسولاً، بل رماه بأنه ولد بغى كاليهود. وكل هؤلاء أقوالهم باطلة، وأراؤهم فاسدة، مبنية على الشك والعناد، والأدلة الفاسدة، والشبه الكاسدة، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿فويل للذين كفروا﴾ بالله ورسله وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر ﴿من مشهد يوم عظيم﴾ أي: مشهد يوم القيامة، الذي يشهده الأولون والآخرون، أهل السماوات وأهل الأرض، الخالق والمخلوق، المتلى بالزلزال والأهوال، المشتمل على الجزاء بالأعمال، فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون ويبدون، وما كانوا يكتُمون.

﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم! فيقرون بكفرهم وشركهم

ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾ أي: من فضل ربي وكرمه، حصلت لي السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي، من الشر والشيطان والعقوبة، وذلك يقتضي سلامته من الأهوال، ودار الفجار، وأنه من أهل دار السلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان باهر، على أنه رسول الله، وعبد الله حقاً.

﴿٣٤ - ٣٦﴾ ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات، عيسى ابن مريم، من غير شك ولا مرية، بل قول الحق وكلام الله، الذي لا أصدق منه قبلاً، ولا أحسن منه حديثاً، فهذا الخبر اليقيني عن عيسى عليه السلام، وما قيل فيه مما يخالف هذا، فإنه مقطوع ببطلانه، وغايته أن يكون شكاً من قائله لا علم له به، ولهذا قال: ﴿الذي فيه يمترون﴾ أي: يشكون فيمارون بشكهم، ويجادلون بخرصهم، فمن قائل عنه: إنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالي الله عن إفكهم وتقولهم علواً كبيراً، ف ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق، لأن ذلك من الأمور المستحيلة، لأنه الغني الحميد، المالك لجميع الممالك، فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ولداً؟! ﴿سبحانه﴾ أي: تنزهه وتقدس عن الولد والنقص، ﴿إذا قضى أمراً﴾ أي: من الأمور الصغار والكبار، لم يمتنع عليه ولم يستصعب ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ فإذا كان قدره ومشيئته نافذاً في العالم العلوي والسفلي، فكيف يكون له ولداً؟! وإذا كان إذا أراد شيئاً قال له: ﴿كن فيكون﴾ فكيف يستعبد إيجاده عيسى من غير أب؟! ولهذا أخبر عيسى أنه عبد مروبوب كغيره، فقال: ﴿وإن الله

(١) في ب: لا بعد.

وَتَدْعِيهِ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَذَرَيْتُهُ بَيْنًا \* وَوَحَيْتُهُ اللَّهُ  
 مِنْ دُونِهَا فَاتَّخَذَهُ خَيْرُونَ بَيْنًا \* وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ  
 إِذْ كَانَ صَاحِبَ السُّورِ وَالْعَوْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا \* وَكَانَ بِأَمْرِهِ اللَّهُ  
 بِالصَّلَاةِ وَالزُّكُورِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَتِينًا \* وَأَذْكُرُ فِي  
 الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا \* وَذَرَيْتُهُ مَكَائِيلًا عِبَادًا  
 \* أُولَئِكَ الَّذِينَ أَحْبَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمَنْ  
 سَمِعَ نوحًا نوحًا \* وَمَنْ ذَرِيَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمَنْ هَدَيْنَا وَجَعَلْنَا  
 إِبْرَاهِيمَ نَبِيًّا \* وَذَرَيْتَهُ إِذْ كَفَرَ الْكُفْرَ الْأَوَّلِيَّ \* وَذَرَيْتَهُ مِنْ  
 بَعْدِهِمْ عَلَى صَفْوَةِ الصَّلَاةِ وَأَشْرَفِ الشُّهُورِ فَخَرَقَ بَعْدَ بَعْدِهِمْ  
 نَحْيًا \* لِأَمْرٍ تَابَ وَمَنْ وَجَّهَ صِدْقًا فَأُولَئِكَ يَتَخَوَّضُونَ  
 الْجَنَّةَ وَلَا يَطْفَأُونَ فِيهَا \* جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ لِمَنِ  
 آمَنَ وَالنَّبِيِّينَ الَّذِينَ آمَنُوا \* لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا إِلَّا إِذْ سَأَلُوا  
 وَلَهُمْ فِيهَا مِنْهَا بِكْرٌ وَيَتَجَاوَزُونَ \* فِيهَا الْكُنُوزُ الَّتِي كُتِبَ  
 عَلَيْهَا مِنَ الْجَنَّةِ \* وَمَا تَنْزِيلُ الْإِسْرَاءِ \* وَمَا تَنْزِيلُ الْإِسْرَاءِ  
 مَا بَيْنَ الْيَدَيْنَا وَمَا خَلَقْنَا رِجَالًا مِثْلَ ذَلِكَ \* وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُخَيِّبَكَ

عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطك، والمقصود من هذا قوله: ﴿فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾ أي: مستقيماً معتدلاً، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال، وفي هذا من لطف الخطاب وليته ما لا يخفى، فإنه لم يقل: «يا أبت أنا عالم، وأنت جاهل» أو: «ليس عندك من العلم شيء»، وإنما أتى بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علماً، وأن الذي وصل إلي لم يصل إليك ولم يأتك، فينبغي لك أن تتبع الحجة وتتقاد لها.

﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾ لأن من عبد غير الله فقد عبد الشيطان، كما قال تعالى: ﴿لم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾.

﴿إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾ فمن اتبع خطواته، فقد اتخذه ولياً وكان عاصياً لله بمنزلة الشيطان. وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن، إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتعلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته، ولهذا قال: ﴿يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن﴾ أي: بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان ﴿فتكون للشيطان ولياً﴾ أي: في الدنيا والآخرة، فتنزّل بمنزلة

ورفع قدرهم، وأعل أمرهم، بسبب ما قاموا به، من عبادة الله ومحبته، والإجابة إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر على ذلك، والمقامات الفاخرة، والمنازل العالية، فذكر الله في هذه السورة جملة من الأنبياء، بأمر الله رسوله أن يذكرهم، لأن في ذكرهم إظهار الشاء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحث على الإيمان بهم ومحبتهم، والافتداء بهم، فقال: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً﴾ جمع الله له بين الصديقية والنبوة.

فالصديق: كثير الصدق، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق بكل ما أمر بالتصديق به، وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلى القلب، المؤثر فيه، الموجب لثبوت القلب، والعمل الصالح الكامل، وإبراهيم عليه السلام، هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد ﷺ، وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة، وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى الله، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه مهما أمكنه، وذكر الله مراجعته إياه، فقال: ﴿إذ قال لأبيه﴾ مهجناً له عبادة الأوثان: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ أي: لم تعبد أصناماً، ناقصة في ذاتها، وفي أفعالها، فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعبادها نفعاً ولا ضراً، بل لا تملك لأنفسها شيئاً من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع، فهذا برهان جلي دال على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلاً وشرعاً. ودل بتبنيبه وإشارته، أن الذي يجب ومحسن عبادة من له الكمال، الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى.

﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾ أي: يا أبت لا تحقرني وتقول: إني ابنك، وإن عندك ما ليس

غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يحظر بقلوبهم، ولو خطر فعل سبيل الغفلة، قد عمتهم الغفلة، وشملتهم السكره، فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسوله، قد ألهمتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهراتهم المنقضية الفانية، فالدنيا وما فيها، من أولها إلى آخرها، ستذهب عن أهلها، ويذهبون عنها، وسيبث الله الأرض ومن عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أو ربحوا، فمن فعل خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿٤١ - ٥٠﴾ ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً﴾ إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً \* يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً \* يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً \* يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً \* قال أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمك واهجرني ملياً \* قال سلام عليك ما استغفر لك ربي إنه كان يرفحياً \* واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً \* فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً \* وهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدقٍ عليهما \* أجل الكتب وأفضلها وأعلاها، هذا الكتاب المبين، والذكر الحكيم، فإن ذكرك فيه الأخيار، كانت أصدق الأخبار، وأحقها، وإن ذكرك فيه الأمر والنهي، كانت أجل الأوامر والنواهي، وأعدلتها وأقسطها، وإن ذكر فيه الجزاء والوعود والوعيد، كان أصدق الأنبياء وأحقها وأدلتها على الحكمة والعدل والفضل، وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون، كان المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيراً ما يبدى، وبعيد في قصص الأنبياء، الذين فضلهم على غيرهم،



أدعو الله لك بالهداية والمغفرة، بأن يهديك للإسلام، الذي تحصل به المغفرة، ف ﴿إِنَّهُ كَانَ بِحُضِيِّ﴾ أي: رحيماً رؤوفاً بحالي، معتياً بي، فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له أنه عدو الله، وأنه لا يفيد فيه شيئاً، ترك الاستغفار له، وتبرأ منه.

وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم، فمن اتباع ملته، سدوك طريقه في الدعوة إلى الله، بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة، والانتقال من مرتبة إلى مرتبة<sup>(٢١)</sup>، والصبر على ذلك، وعدم السأمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان، القولی والفعلي.

فلما أيس من قومه وأبيه قال: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ أي: أنتم وأصنامكم ﴿وآدعوري﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة ﴿عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً﴾ أي: عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي، وهذه وظيفة من أيس عن دعاهم، فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجح فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون، أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله، ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومه، من أشق شيء على النفس، لأمر كثيرة معروفة، ومنها انفراده عن من يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، واعتزل إبراهيم قومه، قال الله في حقه: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً﴾ من إسحق ويعقوب ﴿جعلنا نبياً﴾ فحصل له هبة هؤلاء الصالحين<sup>(٢٢)</sup> المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين.

﴿وهبنا لهم﴾ أي: لإبراهيم وابنيه ﴿من رحمتنا﴾ وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون، ﴿وجعلنا لهم لسان صدق علياً﴾ وهذا أيضاً من الرحمة التي وهبها لهم، لأن الله وعد كل محسن، أن ينشر له ثناء صادقاً بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب، العالي غير الخفي، فذكرهم ملاً للخائفين، والثناء عليهم ومحبتهم، امتلات بها القلوب، وفاضت به الألسنة، فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكراهم في سائر العصور، متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

﴿٥١ - ٥٣﴾ ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً \* وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً \* وهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ أي: واذكر في هذا القرآن العظيم موسى بن عمران، على وجه التبجيل له، والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة، ﴿إِنَّهُ كَانَ مَخْلُصاً﴾ قرئ بفتح اللام، على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين. وقرئ بكسرهما، على معنى أنه مخلص لله تعالى، في جميع أعماله، وأقواله، ونياته، فوصفه الإخلاص في جميع أحواله، والمعنيين متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد، الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه، ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة، فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من

الذميمة، وترتج في مراتعه الوخيمة، فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتساعك إياي، وأنتك إن أطعنتي، اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم ناه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان، فلم ينجح هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾ فتبجح بألهته [التي هي] من الحجر والأصنام، ولا م إبراهيم عن رغبته عنها، وهذا من الجهل المفرط، والكفر الوخيم، يتمدح بعبادة الأوثان، ويدعو إليها.

﴿لئن لم تنته﴾ أي: عن شتم آلهتي، ودعوتي إلى عبادة الله ﴿لأرجمنك﴾ أي: قتلاً بالحجارة ﴿واهجرني ملياً﴾ أي: لا تكلمني زماناً طويلاً، فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتمه، بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره، وقال: ﴿سلام عليك﴾ أي: ستسلم من خطاي إياك بالشتم والسب وبما تكره، ﴿سأستغفر لك ربي إنه كان بي حضيماً﴾ أي: لا أزال

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: من رتبة إلى رتبة.

(٣) في ب: فصل له ولهؤلاء الصالحين.

وخواص المرسلين، وذكر فضائلهم ومراتبهم قال: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾. أي: أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق، ومئة لا تسبق، من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعمت عليهم، وأن من أطاع الله، كان مع الذين أنعم الله عليهم، من النبيين الآية. وأن بعضهم ﴿من ذرية آدم وعن حملنا مع نوح﴾ أي: من ذريته ﴿ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل﴾ فهذه خير بيوت العالم، اصطفاهم الله، واختارهم، واجتباهم، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد.

﴿خبروا سجداً وبكياً﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرغبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صماً وعمياناً.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿الرحمن﴾ دلالة على أن آياته، من رحمة بعباده وإحسانه إليهم، حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

﴿٥٩ - ٦٣﴾ ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾ \* إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً \* جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً \* لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً \* تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً \* لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء

للموعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه [له] <sup>(١)</sup> وقال: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ وفي ذلك ومكّن أباه من الذبح، الذي هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان، ثم وصفه بالرسالة والنبوة، التي [هي] أكبر منن الله على عبده، وأهلها <sup>(٢)</sup> من الطبقة العليا من الخلق.

﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة﴾ أي: كان مقيماً لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فأكمل نفسه، وكمال غيره، وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله، لأنهم أحق بدعوته من غيرهم.

﴿وكان عند ربه مرضياً﴾ وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، فرضي الله عنه، ورضي [هو] عن ربه.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً \* ورفعناه مكاناً علياً﴾ أي: اذكر في الكتب <sup>(٣)</sup> على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال ﴿إدريس إنه كان صديقاً نبياً﴾ جمع الله له بين الصديقية، الجامعة للتصديق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، وبين اصطفاؤه لوحيه، واختياره لرسالته، ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ أي: رفع الله ذكره في العالمين، ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة.

﴿٥٨﴾ ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبتنا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين،

الشرع، دقه وجله. والنبوة تقتضي إجماع الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، بل خصه الله من أنواع الوحي، بأجل أنواعه وأفضلها، وهو: تكليمه تعالى وتقريبه مناجياً لله تعالى، وبهذا اختص من بين الأنبياء، بأنه كليم الرحمن، ولهذا قال: ﴿وناديانه من جانب الطور الأيمن﴾

أي: الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو الأيمن: أي: الأبرك من الأيمن والبركة. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾ ﴿وقربناه نجياً﴾ والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوهم.

وقوله: ﴿وهيئنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه، ونصحته لأخيه هارون، أنه سأل ربه أن يشركه في أمره، وأن يجعله رسولاً مثله، فاستجاب الله له ذلك، ووهب له من رحمة أخاه هارون نبياً. فنبوته هارون تابعة لنبوته موسى عليهما السلام، فساعده على أمره، وأعان عليه.

﴿٥٤ - ٥٥﴾ ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً \* وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً﴾ أي: واذكر في القرآن الكريم، هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذي منهم سيد ولد آدم.

﴿إنه كان صادق الوعد﴾ أي: لا يعد وعداً إلا وفي به، وهذا شامل

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: وجعله.

(٣) في ب: في الكتاب.

من قرءة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴿١٩﴾ والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى، بدليل قوله: ﴿إنه كان وعده مأتياً﴾ لا بد من وقوعه، فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ أي: كلاماً لاغياً لا فائدة فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتماً، ولا عيباً، ولا قولاً فيه معصية الله، أو قولاً مكذباً، ﴿إلا سلاماً﴾ أي: إلا الأقوال السالمة من كل عيب، من ذكر الله، وتحمية، وكلام سرور، وبشارة، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجية، من الخور والملائكة والولدان، والنعيمات المطرية، والألفاظ الرخيمة، لأن الدار دار السلام، فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه، ﴿ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشيا﴾ أي: أرزاقهم من المأكول والمشرب، وأنواع اللذات، مستمرة حيثما طلبوا، وفي أي: وقت رغبوا، ومن تمامها ولذتها وحسنها، أن تكون في أوقات معلومة.

﴿بكرةً وعشيا﴾ ليعظم وقعها ويتم نفعها، فتلك الجنة التي وصفناها بما ذكر ﴿التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا ييغون عنه جؤلاً، كما قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾.

﴿٦٤ - ٦٥﴾ ﴿وما ننزله إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً﴾ رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميّاً ﴿استبطن النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: «لو تأتينا أكثر مما تأتينا» - تشوقاً إليه، وتوحشاً

اسمه ﴿الرحمن﴾ لأنها فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب [بشر]. وسماها تعالي رحمته، فقال: ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾. وأيضاً ففي إضافتها إلى رحمته، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية بقاء رحمته، التي هي أثرها وموجبها، والعباد في هذه الآية، المراد: عباد إلهيته، الذين عبدوه، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفاً لهم كقوله: ﴿وعباد الرحمن﴾ ونحوه، بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيداً لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم ودبرهم، فليسوا داخلين في عبيد إلهيته العبودية الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار، لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿بالغيب﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿وعبد الرحمن﴾ فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعداً غائباً، لم يشاهدوه ولم يروه، فأمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها، مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكننا أشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيّاً، ويكون في هذا، مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع. ويحتمل أن تكون متعلقة بعبادته، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه، لكننا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حباً، وأجل شوقاً، ويحتمل أيضاً، أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدرکہا الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل، ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم

المخلصون﴾<sup>(١)</sup> المتبعون لمراضي ربه، المتنبئون إليه، ذكر من أتى بعدهم، وبدلوا ما أمرُوا به، وأنه خلف من بعدهم خلف، رجعوا إلى الخلف والوراء، فأضاعوا الصلاة التي أمرُوا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي أكد الأعمال، وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيع، وله أرفض، والسبب الداعي لذلك، أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها فصارت مهمهم منصرفه إليها، مقدمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال على شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم حصولها، وعلى أي: وجه اتفقت تاورثوها.

﴿فسوف يلقون غياً﴾ أي: عذاباً مضاعفاً شديداً، ثم استثنى تعالي فقال: ﴿إلا من تاب﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزمًا جازماً أن لا يعاودها، ﴿وأمن﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وعمل صالحاً﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على السنة رسله، إذا قصد به وجهه، ﴿فأولئك﴾ الذين جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح، ﴿يدخلون الجنة﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم، ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾ من أعمالهم، بل يجزونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفاً عددها.

ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي جنات عدن، أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا جؤل ولا زوال، وذلك لسعتها، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والخبور. ﴿التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾ أي: التي وعدها الرحمن، أضافها إلى

(١) جعل الشيخ هذه الكلمات بالرفع، وجعل فوق كلمة (المخلصون) بخط صغير كلمة (قطع) وفي هذا إشارة إلى أنه من باب القطع

والشياطين ثم لنحضرهم حول جهنم جثياً \* ثم لننزعن من كل شيعه أيهم أشد على الرحمن عتياً \* ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً \* أقسم الله تعالى وهو أصدق القائلين - بربوبيته، ليحشرن هؤلاء المنكرين للبعث، هم وشياطينهم فيجمعهم ليلقات يوم معلوم، \* ثم لنحضرهم حول جهنم جثياً \* أي: جاثين على ركبهم من شدة الأحوال، وكثرة الزلزال، وفضاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال:

«ثم لننزعن من كل شيعه أيهم أشد على الرحمن عتياً \* أي: ثم لننزعن من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين في الظلم والكفر والعتو أشدهم عتواً، وأعظمهم ظلماً، وأكبرهم كفراً، فيقدمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدم إلى العذاب، الأغلظ إثمًا، فالأغلظ، وهم في تلك الحال متلاعنون، يلعن بعضهم بعضاً، ويقول أخراهم لأولاهم: «ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون \* وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل \* وكل هذا تابع لعدله وحكمته وعلمه الواسع، ولهذا قال: \* ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً \* أي: علمنا محيط بمن هو أولى صلياً بالنار، قد علمناهم، وعلمنا أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب.

«٧١ - ٧٢ \* وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً \* ثم نتجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً \* وهذا خطاب لسائر الخلائق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد، إلا سيرد النار، حكماً حتمه الله على نفسه، وأوعده به عباده، فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه.

واختلف في معنى الورد، فقيل: ورودها، حضورها للخلائق كلهم، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بُعد، ينجي الله الثقلين. وقيل: ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين

بالعقل. أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً، لأنه الرب، وغيره مريب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراذه بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فللهذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وإفراذه بالعظمة والأسماء الحسنى.

«٦٦ - ٦٧ \* ويقول الإنسان أإذا مات لسوف أخرج حياً \* أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً \* المراد بالإنسان هاهنا، كل منكر للبعث، مستبعد لوقوعه، فيقول - مستفهماً على وجه النفي والعتاد والكفر - «أإذا ما مت لسوف أخرج حياً \* أي: كيف يعيدني الله حياً بعد الموت، وبعد ما كنت رميماً؟! هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيء، وعتاده لرسل الله وكتبه، فلو نظر أدنى نظر، وتأمل أدنى تأمل، لرأى استبعاده للبعث، في غاية السخافة، ولهذا ذكر تعالى برهاناً قاطعاً، ودليلاً واضحاً، يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال: \* أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً \* أي: أو لا يلفت نظره، ويستذكر حالته الأولى، وأن الله خلقه أول مرة، ولم يك شيئاً، فمن قدر على خلقه من العدم، ولم يكن شيئاً، مذكوراً، اليس بقادر على إنشائه بعد ما تمزق، وجمعه بعد ما تفرق؟ وهذا كقوله: \* وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه \*.

وفي قوله: \* أولاً يذكر الإنسان \* دعوة للنظر، بالدليل العقلي، بالأنطى خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك، مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك.

«٦٨ - ٧٠ \* فوربك لنحشرنهم

لنفرقه، وليطمئن قلبه بنزوله - فأنزل الله تعالى على لسان جبريل: \* وما ننزل إلا بأمر ربك \* أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا، ابتدرنا أمره، ولم نعص له أمراً، كما قال عنهم: \* لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون \* فنحن عبيد مأمورون، \* له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك \* أي: له الأمور الماضية والمستقبلية والحاضرة، في الزمان والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأنا عبيد مديرون، فيبقى الأمر دائراً بين: «هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟» ولهذا قال: \* وما كان ربك نسياً \* أي: لم يكن الله لينسأك ويملكك، كما قال تعالى: \* ما ودعك ربك وما قلى \* بل لم يزل معتنياً بأمرك، مجرباً لك على أحسن عوانده الجميلة، وتدبيره الجميلة.

أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد، فلا يحزنك ذلك ولا يهيك، واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك، لما له من الحكمة فيه، ثم علل إحاطة علمه، وعدم نسيانه، بأنه «رب السماوات والأرض» فربوبيته للسماوات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكملته، ليس فيه غفلة ولا إهمال، ولا سُدَي، ولا باطل، برهان قاطع على علمه الشامل، فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلها بما يتفعل ويعود عليك طائله، وهو: عبادة وحده لا شريك له، \* واصطبر لعبادته \* أي: اصبر نفسك عليها وجهدها، وقم عليها أتم القيام وأكملها بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعباد عن جميع التعلقات والمشتبهات، كما قال تعالى: \* ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه \* إلى أن قال: \* وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها \* الآية. \* هل تعلم له سميماً \* أي: هل تعلم الله مسامياً ومشابهاً وممثلاً من المخلوقين. وهذا استفهام بمعنى التثني، المعلوم

برداً وسلاماً. وقيل: الورد، هو المرور على الصراط، الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مثيلاً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف يلقى في النار، كلٌ بحسب تقواه، ولهذا قال: ﴿ثم نجي الذين اتقوا﴾ الله تعالى بفعل المأمور، واجتناب المحذور ﴿ونذر الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فيها جثياً﴾ وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم الخلود، وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿٧٣ - ٧٤﴾ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خيراً مقاماً وأحسن ندياً﴾ \* ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً﴾ أي: وإذا تتلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات، أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان وشدة الإيقان، قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزؤوا بها وبمن آمن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا، على أنهم خيراً من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق: ﴿أي الفريقين﴾ أي: نحن والمؤمنون ﴿خيراً مقاماً﴾ أي: في الدنيا، من كثرة الأموال والأولاد، وتوفر الشهوات ﴿وأحسن ندياً﴾ أي: مجلساً. أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة، أنهم أكثر مالا وأولاداً، وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة.

والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خيراً من المؤمنين، وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال والأولاد، وحسن المنظر، كثيراً ما يكون سبباً لهلاك صاحبه، وشقائه، وشره، ولهذا قال

تعالى:

﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً﴾ أي: متاعاً، من أوان وفرش، وبيوت، وزخارف، وأحسن رثياً، أي: أحسن مرأى ومنظراً، من غضارة العيش، وسرور اللذات، وحسن الصور، فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثاً ورثياً، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم، فكيف يكون هؤلاء، وهم أقل منهم وأذل، معتصمين من العذاب ﴿أفكاركم خيراً من أولئك أم لكم براءة في الزبير﴾؟ وعلم من هذا، أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار.

﴿٧٥﴾ ﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً حتى إذا رآوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ لما ذكر دليلهم الباطل، الذال على شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، أخبر هنا، أن من كان في الضلالة، بأن رضيها لنفسه وسعى فيها، فإن الله يمده منها، ويزيده فيها جناً، عقوبة له على اختيارها على الهدى، قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ ﴿حتى إذا رآوا﴾ أي: القائلون: ﴿أي الفريقين خيراً مقاماً وأحسن ندياً﴾ ﴿ما يوعدون إما العذاب﴾ يقتل أو غيره ﴿وإما الساعة﴾ التي هي باب الجزاء على الأعمال ﴿فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ أي: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلة، ويتيقنون أنهم أهل الشر، ﴿وأضعف جنداً﴾ ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئاً، لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيعملون غير عملهم الأول.

﴿٧٦﴾ ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا

هدى والباقيات الصالحات خيراً عند ربك ثواباً وخيراً مرداً﴾ لما ذكر أنه يمد للمهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقاً، في العلم والإيمان والعمل الصالح، زاده الله منه، وسهله عليه ويسره له، ووهب له أموراً أخر، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ليزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾.

ويدل عليه أيضاً الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور، أعظم تفاوت، ثم قال: ﴿والباقيات الصالحات﴾ أي: الأعمال الباقية، التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها، ولا تضمحل، هي الصالحات منها، من صلاة وزكاة، وصوم، وحج، وعمرة، وقرءة، وتسيح، وتكبير، وتحميد، وتهلل، وإحسان إلى المخلوقين، وأعمال قلبية وبدنية، فهذه الأعمال ﴿خيراً عند ربك ثواباً وخيراً مرداً﴾ أي: خيراً عند الله، ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها وردها، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل في غير بابه، فإنه ما ثم غير الباقيات الصالحات، عمل ينفع، ولا يبقى لصاحبه ثوابه ولا ينجع، ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات - والله أعلم - أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد، وحسن المقام ونحو ذلك، علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

﴿٧٧ - ٨٠﴾ ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً﴾ \* أطلع

الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً \* كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً \* وترثه ما يقول ويأتينا فرداً \* أي: أفلا تعجب من حالة هذا الكافر، الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة، أنه سيؤتى في الآخرة مالاً وولداً، أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور، فلو كان مؤمناً بالله وادعى هذه الدعوى، لسهل الأمر.

وهذه الآية - وإن كانت نازلة في كافر معين - فإنها تشمل كل كافر، زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة، قال الله توبيخاً له وتكذيباً: ﴿أطلع الغيب﴾ أي: أحاط علمه بالغيب، حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون، أنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً؟ ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أنه نائل ما قاله، أي: لم يكن شيء من ذلك، فعلم أنه مُتَقَوْلٌ، قائل ما لا علم له به. وهذا التقسيم والترديد، في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحججة؛ فإن الذي يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة، لا يخلو؛ إما أن يكون قوله صادراً عن علم بالغيوب المستقبلية، وقد علم أن هذا له وحده، فلا أحد يعلم شيئاً من المستقبلات الغيبية، إلا ما أطلعه الله إليه من رسله.

وإما أن يكون متخذاً عهداً عند الله، بالإيمان به، واتباع رسله، الذي عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، التاجون الفائزون. فإذا انتفى هذان الأمران، علم بذلك بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى: ﴿كلا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، فليس للقاتل اطلاع على الغيب، لأنه كافر، ليس عنده من علم الرسل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهداً، لكفره وعدم إيمانه، ولكنه يستحق ضد ما تقوله، وأن قوله مكتوب محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: ﴿سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً﴾ أي: نزيده من أنواع العقوبات،

كما ازداد من الغي والضلال، ﴿وترثه ما يقول﴾ أي: ترثه ماله وولده، فينتقل من الدنيا فرداً، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان ﴿ويأتينا فرداً﴾ نرى من وخيم العذاب وأليم العقاب، ما هو جزاء أمثاله من الظالمين.

﴿٨٣ - ٨٤﴾ ﴿أم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزااً \* فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً﴾ وهذا من عقوبة الكافرين أنهم - لما لم يعتصموا بالله، ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به والوا أعداءه، من الشياطين - سلطهم عليهم، وقبضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أزااً، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجاً، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم ويتشرها، فيسعى فيه سعي المحق في حقه، فينصره بجهدته ومحارب عنه، ويمجاهد أهل الحق في سبيل الباطل، وهذا كله، جزاء له على توليه من وليه وتوليه لعدوه، جعل له عليه سلطان، وإلا فلوا آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان، كما قال تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ \* إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون.

﴿فلا تعجل عليهم﴾ أي: على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب ﴿إنما نعد لهم عداً﴾ أي: أن لهم أياماً معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، نمهلهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله، فإذا لم ينتجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿٨٥ - ٨٧﴾ ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً \* ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً \* لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين المتقين،

أفترقت الله كمن يرتد من قولنا ﴿والله أعلم﴾ الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً \* كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً \* وترثه ما يقول ويأتينا فرداً \* أي: أفلا تعجب من حالة هذا الكافر، الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة، أنه سيؤتى في الآخرة مالاً وولداً، أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور، فلو كان مؤمناً بالله وادعى هذه الدعوى، لسهل الأمر. وهذه الآية - وإن كانت نازلة في كافر معين - فإنها تشمل كل كافر، زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة، قال الله توبيخاً له وتكذيباً: ﴿أطلع الغيب﴾ أي: أحاط علمه بالغيب، حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون، أنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً؟ ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أنه نائل ما قاله، أي: لم يكن شيء من ذلك، فعلم أنه مُتَقَوْلٌ، قائل ما لا علم له به. وهذا التقسيم والترديد، في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحججة؛ فإن الذي يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة، لا يخلو؛ إما أن يكون قوله صادراً عن علم بالغيوب المستقبلية، وقد علم أن هذا له وحده، فلا أحد يعلم شيئاً من المستقبلات الغيبية، إلا ما أطلعه الله إليه من رسله. وإما أن يكون متخذاً عهداً عند الله، بالإيمان به، واتباع رسله، الذي عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، التاجون الفائزون. فإذا انتفى هذان الأمران، علم بذلك بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى: ﴿كلا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، فليس للقاتل اطلاع على الغيب، لأنه كافر، ليس عنده من علم الرسل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهداً، لكفره وعدم إيمانه، ولكنه يستحق ضد ما تقوله، وأن قوله مكتوب محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: ﴿سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً﴾ أي: نزيده من أنواع العقوبات، كما ازداد من الغي والضلال، ﴿وترثه ما يقول﴾ أي: ترثه ماله وولده، فينتقل من الدنيا فرداً، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان ﴿ويأتينا فرداً﴾ نرى من وخيم العذاب وأليم العقاب، ما هو جزاء أمثاله من الظالمين. ﴿٨٣ - ٨٤﴾ ﴿أم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزااً \* فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً﴾ وهذا من عقوبة الكافرين أنهم - لما لم يعتصموا بالله، ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به والوا أعداءه، من الشياطين - سلطهم عليهم، وقبضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أزااً، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجاً، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم ويتشرها، فيسعى فيه سعي المحق في حقه، فينصره بجهدته ومحارب عنه، ويمجاهد أهل الحق في سبيل الباطل، وهذا كله، جزاء له على توليه من وليه وتوليه لعدوه، جعل له عليه سلطان، وإلا فلوا آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان، كما قال تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ \* إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون. ﴿فلا تعجل عليهم﴾ أي: على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب ﴿إنما نعد لهم عداً﴾ أي: أن لهم أياماً معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، نمهلهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله، فإذا لم ينتجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز مقتدر. ﴿٨٥ - ٨٧﴾ ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً \* ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً \* لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين المتقين،

والمجرمين، وأن المتقين له - باتقاء الشرك والبدع والمعاصي - يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين، مبجلين معظمين، وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان، وفوداً إليه، والرافد لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء، وحسن الظن بالرافد [إليه] <sup>(١)</sup>، ما هو معلوم، فالتقون يقدون إلى الرحمن، راجين منه رحمة وعميم إحسانه، والغفر بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه، واتباع مرضيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الشواب على السنة رسله، فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين بفضله.

وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم ورداً، أي: عطاشاً، وهذا أشنع ما يكون من الحالات، سوقهم على وجه الذل والصفار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمأهم ونصبهم يستغِيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال: ﴿لا يملكون الشفاعة﴾ أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾. وقد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لأنهم

(١) زيادة من هامش ب.

